إشكالية التصوير الإسلامي بين الإباحة والتحريم
مقمقمات الواسطي أنموذجا

THE PROBLEMATIC OF ISLAMIC PHOTOGRAPHY BETWEEN PERMISSIBILITY AND PROHIBITION

Typical Of The Wasti Model

Rs. Safia MENAD الباحثة: صفية مناد
University of MOSTAGHANEM جامعة مستغانم
menad.safia@gmail.com

Pr. Cheref LATROUCHE الأستاذ الدكتور: الشارف لطروش
University of MOSTAGHANEM جامعة مستغانم

***Accepted*:**	**2018/02/03**	قُبل للنشر:	***Received:*** **2018/02/09** استلم:

ملخص:

تعد مسألة التصوير من أهم القضايا التي تشغل عقول الفقهاء والعلماء بين الإباحة أو التحريم، رغم عدم وجود أي نص قرآني حول منعه، إلا أن هذا الرفض كان بسبب ما روي عن كره الرسول صلى الله عليه وسلم، ونهيه عن تصوير الكائنات الحية خاصة، خوفا على المسلمين من العودة إلى عبادة الأصنام لأنهم لم يبتعدوا فترة كبيرة عن عبادتها، لكن بعد مرور الزمن الكافي ورسوخ الدين الإسلامي في صدور المسلمين جاز استعمالها شرط ألا تكون لغاية العبادة والتعظيم وبعد أن خرجت الخلافة من شبه الجزيرة العربية وانتقل الحكم إلى بني أمية، بدأ الاهتمام بالتصوير خصوصا في العصر العباسي حيث ظهرت أول مدارس التصوير الإسلامي وهي مدرسة بغداد التي عنيت بتزين الكتب وتزويقها بالصور وكان يحي بن محمود الواسطي رائد هذه المدرسة ومؤسسها، وتعتبر منمنماته ذات أهمية كبيرة، فمن خلالها تمكنا من معرفة أحوال العصر العباسي.

الكلمات المفتاحية: إشكالية؛ التصوير الإسلامي؛ منمنمات؛ الواسطي؛ يحيى بن محمود.

Abstract:

The issue of photography is one of the most important issues that occupy the minds of jurists and scholars between permissibility and prohibition, even though there is no Qur'anic text about banning it. However, this rejection was because of the narration of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) Muslims must return to idolatry because they did not leave a long period of worship, but after the passage of time and the consolidation of the Islamic religion in the issuance of Muslims may be used as a condition not to be worship and maximize and after the Caliphate came out of the Arabian Peninsula and transferred to the rule of illiteracy, Interest in photography, especially in the Abbasid era h The first school of Islamic photography was the Baghdad School, which was designed to decorate books and decorate them with pictures. Yahya bin Mahmoud Al Wasiti was the pioneer and founder of this school. His works are of great importance, through which we were able to know the conditions of the Abbasid era.

Keywords: *Problematic; Islamic photography; Minnemat; Wasti; Yahya Ben Mahmoud.*

تمهيد:

رغم كل الأبحاث التي أجريت حول مسألة التصوير الإسلامي، إلا أنه بقي يشغل حيزا كبيرا في الفنون الإسلامية بسبب مسألة تخوف العلماء والفقهاء من شبهة الوقوع في مضاهاة خلق الله، لأنهم يرون أنّ صفة التصوير خاصة بقدرة الله وحده وهو القادر على نفخ الروح. وعليه سنتطرق لهذه المسألة بالتفصيل:

1- موقف السنة النبوية من فن التصوير

قبل التطرق إلى رسومات الواسطي لا بد لنا التحدث عن مسألة ضرورية في فن التصوير وهي موقف الإسلام منه، فلا زالت هذه المسألة تشغل عقول الكثير من الفقهاء والعلماء، ومصدر شك بين الإباحة والتحريم، حتى في الوقت الحالي الذي هو عصر الصورة ، رغم أنه لا يوجد نص صريح في القرآن حول منع التصاوير، لكن وردت بعض الأحاديث في الصحيحين تمنع التصوير وتنهى عنه، من بينها: عن عائشة أنها قالت: « واعد الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في ساعة يأتيه، فجاءت تلك الساعة ولم يأته، وفي يده عصا فألقاها من يده وقال ما يُخْلِف الله وعده لرسله ثم التفت فإذا جرو كلب تحت سريريه فقال يا عائشة متى دخل هذا الكلب هاهنا فقلت ما دريت فأمر به فأخرج فجاء جبريل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعدتني فجلست لك فلم تأت فقال منعني ذلك الكلب الذي كان في بيتك إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة.» [1]

و عن عائشة رضي الله عنها قالت: « أنها نصبت سترا فيه تصاوير فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزعه قالت فقطعته وسادتين، فقالت كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرتفق* عليهما». [2]

(1) أبو الحسن مسلم، صحيح مسلم، ج5، دار المعارف، لبنان، د ت، ص 156.
(2) المرجع نفسه، ص 160.

عن ابن عمران أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «الذين يصنعون الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم.»[1]

ومما ورد في صحيح البخاري في قوله حدثنا أبو زرعة قال: دخلت مع أبي هريرة دارا بالمدينة فرأى أعلاها مصورا يصور قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فلْيَخْلُقوا حبة وليخلقوا ذرة.»[2]

وعن عائشة رضي الله عنها قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت بقرام لي على سهوة لي فيها تماثيل فلما رآها ر سول الله صلى الله عليه وسلم هتكه وقال « أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله قالت فجعلته وسادة أو وسادتين».

وعن عائشة رضي الله عنها أنها اشترت نُمرقة* فيها تصاوير فقام النبي صلى الله عليه وسلم من الباب ولم يدخل فقلت أتوب إلى الله مم أذنبت ؟ قال ما هذه النُمْرُقَة ؟قلت لتجلس عليه وتوسدها قال: إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة يُقال لهم: أحيوا ما خلقتم وإن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة.»[3]

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أنه دخل على أبي طلحة الأنصاري يعوده قال: فوجد عنده سهل بن حنيف فدعا أبو طلحة إنسانا، فنزع نمطا من تحته، فقال له سها بن حنيف: لم تنزعه ؟ قال: لأن فيه تصاوير، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ما علمت، فقال سهل، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما كان رقما في ثوب ؟ قال بلى، ولكنه أطيب لنفسي.»[4]

---

(1) المرجع نفسه، ص 161.

(2) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، البصائر الجديدة، د ت، ص 1131

(3) المرجع نفسه، ص 1132.

(4) الإمام الموطأ، دار الكتب، الجزائر، د ت، ص 554.

ونجد الإمام النووي يعتبر من رسم صورة تجاوزا للعقيدة مثلما هو الشأن لمرتكب الكبائر إذ يقول: « قال أصحابنا وغيرهم من العلماء، تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم، وهو من الكبائر لأن متوعد عليه الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث، وسواء صنعه بم يمتهن أو بغيره فصنعته حرام بكل حال لأن فيه مضاهاة لخلق الله، وسواء كان في ثوب أو بساط أو درهم أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها، وأما تصاوير الشجر والرحال والإبل ، وغير ذلك مم ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام.»[1] وهنا نلاحظ الموقف المتشدد للإمام النووي حول ما يخص أمر الصور..

لكن بالنظر إلى تلك الجماليات التي وصلتنا من خلال عدة رسومات يتضح أن التصاوير كانت مكروهة في عصر الرسول وصدر الإسلام لغاية إبعادهم عن عبادة الأوثان، فالقوم كانوا حديثي العهد به، وخوفا عليهم تمالمنع.أما بعد ازدهار الفنون والزخارف والعمارة الإسلامية وبعد انتشار الإسلام تطورت فنون التصوير وامتزجت بفنون فارس والمغول والرومان.»[2]

فعندما أخضع الإسلام البلدان التي كان لها تاريخ مع فنون التصوير لسلطانه امتزجت فنونها بفنونه، وكان هذا بعد استقرار الإسلام في قلوب المسلمين ، وسنعرض آراء بعض شيوخنا الكرام في مجال فن التصوير.

2- موقف العلماء من فن التصوير:

يقول الاستاذ «الشيخ شاويش: «إن تحريم التصوير ليس معمما على جميع العصور والأزمنة ، لأنه في رأيه سببا في حفظ حقوق شرعية ، كما هو الحال بالنسبة للغرقى والمجهولين ، كما يكون سببا في تحذير الأمة من اللصوص ، فتنشر صورهم للتعرف عليهم، كما هناك صور تعرف فيها أسرار الله في خليقته، كما هي في صور الحيوانات وأجزائها التي تحتويها كتب التاريخ ، وفوائد أخرى للتصوير

(1) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المرجع نفسه، ص 1131

(2) محمد عزيز نظمي، قراءات في علم الجمال، ج1، مؤسسة شباب الجامعية، الإسكندرية، 1996، ص 18.

كثيرة.، وإما كانت تتخذ للتعظيم والعبادة والتبرك ، فهي حرام قطعا ، معذب صانعها ومعذب متخذها.»[1]

أما المفكر الإسلامي محمد عمارة فإنه يربط تحريم التصاوير بوجود العلة فإذا انعدمت العلة إنعدم الحكم أو الكره وتحريم التصاوير ارتبط بعلة العبادة والرجوع إلى الوثنية والشرك بالله ، فبعد استقرار الإسلام في نفوس المسلمين ، وبعدهم زمنيا عن عهد الوثنية جاز التصوير والرسم. فقال: « أما الفقهاء الذين وقف كثير منهم عند حرفية نص الأحاديث ولم يبصروا ارتباط تخريجها بعلة هذا التحريم... ودوران هذا التحريم مع العلة وجودا وعدما.. فإن آخرين منهم قد اتخذوا موقفا مغايرا بجواز الصور والتماثيل طالما أن خوف الشرك والوثنية غير قائم.»[2]

نختم قولنا أخيرا برأي وقول الشيخ محمد عبده حيث يرى الإمام «أن الراسم قد رسم والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة والتعظيم للصورة والتمثال قد محي من الأذهان ، فإذا أوردنا الحديث « أن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون « يرد الإمام « أن الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين: الأول: اللهو. والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والأول مما يبغضه الدين

و الثاني مما جاء الإسلام لمحوه ، والمصور في كلتا الحاتين شاغل عن الله أو ممهد للشرك به ، فإذا زالا هذان الغرضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات.»[3]

(1) أحمد تيمور باشا، التصوير عند العرب ، تع زكي محمد حسن، ط 2، هلا للنشر، الجيزة، 2002، ص 205 206.
(2) أحمد شوقي الفنجري، الإسلام و الفن، ط1 دار الأمين، مصر، 1998،ص 124.
(3) سمير غريب، في تأريخ الفنون الجميلة، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1998، ص69.

ويواصل حديثه إلى أن الشريعة الإسلامية أبعد أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ، ولا من جهة العمل.»[1]

هذا ما يؤكد ما ذكرناه سابقا بشأن إباحة التصوير إذا كان في الأمور التي فيها إفادة للعلم والمجتمع ، دون الغاية للعلب والعبادة.

خلاصة:

إن تحريم الصور في عهد الرسول كانت لغاية واضحة وفالرسول عليه الصلاة والسلام إنما قال تلك الأحاديث بسبب خوفه على المسلمين من الرجوع إلى عهد عبادة الأصنام ، ونسيان الخالق الأكبر ، فهؤلاء القوم كانوا على عهد حديث بالإسلام ولم يستقر بعد في نفوسهم ، فإن رأوا تلك التصاوير اشتاقت نفوسهم وحنت إلى الجاهلية، لأن في ذلك العصر كانت الصور منتشرة فيه بكثرة ، لكن بعد ثبات العقيدة الإسلامية وابتعادهم كثيرا عن عصر الوثنية فلا بأس به ،إن كانت غايته غير التعظيم والعبادة ، كاستعماله في العلم والمعرفة ، أو للعب والزينة ، فإذا اختفت علة التعظيم والتبرك جاز التصوير.

بعدما رأينا موقف الإسلام من التصوير سنتطرق الآن إلى الصورة (فن التصوير) في الإسلام ، فمن المعروف أن فن التصوير من الفنون الدخيلة على الإسلام وشبه الجزيرة العربية ، فهو كان موجودا في البلاد التي فتحها المسلمون من أمثال العراق وإيران والهند وغيرها ، إن « الجزيرة العربية لم تعرف التصوير أو النحت أو غيرها من الفنون التي كانت منتشرة في اليونان أو مصر ولم يهتم العرب بالفنون التشكيلية إلا بعد انتقال مركز الخلافة الإسلامية إلى خارج شبه الجزيرة العربية ، وكان ذلك في عهد خلفاء بني أمية الذين تقلدوا الحكم عند انتقال الخلافة إلى دمشق. »[2]

(1) المرجع نفسه، ص 70.

(2) دارس شهرزاد، منطلقات المنهج الفني الجمالي الإسلامي، (مجلة الكلمة)، ع 67، لبنان، 2012، ص 101.

التصوير لم يكن معروفا ومهتما به إلا في عهد بني أمية وقد تركوا تراثا في من خلال ما وجد من رسومات وتصاوير في قصورهم وحماماتهم، وكانت معظم جدرانهم مزينة بالصور الآدمية والحيوانية ومن بين هذه القصور نذكر قصر عمرة وقصر الطوب وخربة المفجر وغيرها، ومم يلاحظ من خلال هذه الرسومات بحسب قول محمد حسين جودي: « أن ميل الخلفاء والحكام الأمويين إتجاه المسائل الدنيوية وعدم التزامهم بكراهية التصوير.»[1] رغم أنهم العصر الأقرب لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد زينوا قصورهم بصور الحكام والنساء والموسقيين.ولم يعطوا بالا لأحاديث النهي حوله.

ثم جاء العصر العباسي وكان العصر الذهبي للتصاوير وبالأخص المنمنمات، فمن المعروف لدى الجميع أن هذا العصر لقب بالعصر الذهبي لما كان فيه من تطور في جميع المجالات العلمية والأدبية وترجمة الكتب من اليونانية والفارسية إلى العربية، ومع تشجيع الخلفاء الكتاب والخطاطين والعلماء زاد الإقبال على الكتب أن الفنان في ممارسته لرسم الصور على الورق يبقى أكثر دقة في التعبير عن مفهوم التصوير ، ثم إن مهنة التصوير ترتبط بمهنة الكتابة، وهكذا يلتحم عنصران مهمان في عناصر التصوير العربي هما الخط والصورة...»[2]

وهي باختصار رسومات صغيرة تزين الكتب أو المخطوطات ويكون حجمها صغيرا جدا ،ويمكن أن تحتوي على أكثر من مشهد وقد ساهمت في التعرف على عادات وتقاليد العصر الذي رسمت فيه « وقد اشتهرت بها المخطوطات البزنطية والفارسية والتركية والهندية ، وقد أتاحت هذه الصور فرصة التعرف على عادات وتقاليد المجتمع الإسلامي العربي في تلك الحقبة من الزمن ، واطلعنا على الحياة

(1) محمد حسين جودي، الفن العربي الإسلامي، دار المسيرة، عمان، ط1، 2007، ص 39

(2) عفيف بهنسي، جماليات الفن العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص50.

اليومية التي لم تكن تؤرخ لها الكتب.»[1] فللمنمنمات دور كبير في التعرف على حياة العصور السابقة خصوصا العصر العباسي بكل ما فيه من عادات وتقاليد الحياة اليومية للأفراد في ذلك العصر ، بسلبياتها وإجابياتها وكل اضطراب فيها لأن العصر العباسي كان فترة ازدهار هذه الصور وقد أبدعوا فيها كثيرا. وهناك من يرى في المنمنمة « صورة خاصة لتمثيل ساطع عملية الخلق من دون أن تقع في مضهاة الإلهي... كما يعتمد الرسام في رسم المنمنمة على حشد من الأخيلة التكوينية وتنظيمها وهيكلتها معتمدا على النص وسرديته ، ومن ثم وضعها في طابع خاص يعتمد على أن الله هو مصدر الأشياء ومصدر مكان الإبداع.»[2]

ومن أشهر المدارس التي ذاع صيتها في فترة بني العباس هي المدرسة العربية أو ما لقبت بمدرسة بغدادنشأت هذه المدرسة في بغداد ، وتعتبر أولى مدارس التصوير الإسلامي، أثبتت هذه المدرسة أن الإسلام لم يكن عائقا أمام الفنون التشكيلية بل كان مساعدا في تطورها وازدهارها على مر العصور ، مع خضوعها لتعاليمه ، وعدم مضهاة الله في خلقه ،

«لقد كانت بلاد الرافدين وإيران مزدهرة بالفن الساسيني منذ منتصف القرن الثالث إلى سقوط الدولة الساسانية في القرن السابع ميلادي ، ومع انتشار الفتوحات الإسلامية إلى أن وصلت إلى الشرق الأدنى ، فتربع الإسلام على حضارة هذا الشرق ، وورث الأساليب الفنية التي عرفتها بلاد ايران والرافدين والشام ومصر. »[3]

وأضاف المسلمون إلى هذه الفنون عناصر الحضارة الإسلامية وخصائص الدين الإسلامي ، من توحيد ، ونبذ للخرفات والأساطير ، فتطورت الفنون الإسلامية خصوصا في العصر العباسي ، فقد نشأت هذه المدرسة في هذا العصر متأثرة بالفن الساسيني ، والبزنطي تأثرا ملحوظا ، ويقول الدكتور

(1) المهرجان الدولي الثقافي للمنمنمات و الزخرفة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2010، ص 90.
(2) المرجع نفسه، ص 94.
(3) ينظر سعاد ماهر محمد، الفنون الإسلامية،مركز الشارقة للإبداع الفكري، دت، ص 376

عيسى سليمان: « إن تصاوير المدرسة البغدادية هي صور توضيحية قصد بها مهمة تسهيل فهم النصوص الموضحة ، وفي ضوء الدقة في الرسوم وصغر المساحة التي تشغلها نسبيا اصطلح على تسميتها بالمنمنمات.»[1] فرسومات مدرسة بغداد لم تكن هواية ولم تكن فنا قائما بذاته ، إنما كان الغرض منها شرح المتن وتوضيحه ، لا إبرازا المواهب.فلنتعرف على هذا الرسام صاحب الأسلوب الخاص والفريد.

يحي بن محمود بن يحي بن أبي الحسن كور يها الملقب بالواسطي ، عاش في القرن الثالث عشر ميلادي من أشهرالمصورين وخطاطي المخطوطات العربية ، من مواليد واسط ، وقد كتب ورسم تسعة وتسعين منمنمة في كتابه المشهور مقامات الحريري الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 5874. ذكر الواسطي اسمه في أخر صفحة من مخطوط المقامات «فرغ من نسخها العبد الفقير إلى رحمة ربه وغفرانه وعفوه ، يحي بن محمود بن يحي بن أبي الحسن كوريها الواسطي بخطه ، وصوره آخر نهار يوم السبت سادس شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة ، حامدا الله تعالى...الخ»[2].

يعتبر الواسطي من بين أهم المصورين الإسلاميين في العهد العباسي وتحديدا في القرن الثالث عشر ميلادي وقد اشتهر بتصويره لمخطوط «مقامات الحريري» وهو زيادة على أنه رساما ومصورا كان خطاطا أيضا فهو من خطط وصور المقامات بنفسه وكان ذلك سنة ستمائة وأربع وثلاثين هجري.634هـ/ 1227م.و مخطوط المقامات أول مخطوط يصل إلينا ناضج من حيث الرسم والتلوين. عاش الواسطي في عصر نبغ فيه الكثير من الأدباء والعلماء نذكر منهم «ابن الأثير المتوفي 1225 صاحب كتاب «الكامل في التاريخ»، وفي الجغرافيا نبغ ياقوت حموي 1225، صاحب المعجمين «معجم البلدان ومعجم الأدباء» ، وكذلك ابن الرازي الجزري صاحب كتاب «العلم والعمل النافع في صناعة الجيل»،

(1) الفن العربي الإسلامي ، المنظمة العربية للتربية و الثقافة، ج1، تونس 1994، ص 177.

(2) عفيف البهنسي ، جماليات الفن العربي، ص 54.

وإلى نفس الفترة ينسب كتاب «الجامع لأحكام القرآن « للقرطبي المتوفي سنة 1273، وكان من بينهم أيضا الخطاط العراقي المشهور ياقوت المعتصمي والمتوفي سنة 1258.»[1]

»فقد استطاع الواسطي أن يخلق إتجاها لم تطله ريشة من قبل ، فلقد استطاع بعبقرية نادرة ، تصوير الحياة اليومية بكل

ما تحتويه من تراكيب والحديث عن الفن العربي بجملته[2]. فلم تكن أعمال هذا المصور تكرارا لمن سبقه بل أعطى لفن التصوير منهجا جديدا ، لم تساير صوره القولب التي كانت منتشرة في الفن البزنطي والساسيني ، هو جمع بين خصائص هاتين الحضارتين ومزجهما بخصائص الفن الإسلامي ، فأعطى بذلك صورة جديدة لفن التصوير في الإسلام لم يعهدها قومه من قبل ، ومغايرة تماما لما كان سائدا قبله. فقد استطاع الواسطي أن يستقرأ الواقع الاجتماعي في عصره ، ويحوله إلى صور صادقة له ، ومرآة عاكسة لكل مافيه من حقائق ، ولقد وصفت صوره بأنها « أصدق تعبير وأوسع دراسة مباشرة للمجتمع الإسلامي آنذاك.»[3]

الأهمية الفنية والحضارية والاجتماعية لمنمنمات الواسطي:

ذكرنا من قبل أن للمنمنمات أهمية كبيرة في التعرف على حياة السابقين من طريقة عيش وأسلوب حياة والأدوات والأثاث المستعمل في عصر من العصور وهي وضحت كل ذلك ، فقد وجدنا فيها ما لم يذكر في كتب التاريخ والأدب والجغرافيا ، ولمنمنمات الواسطي نفس الأهمية فقد تمكنا من خلالها معرفة المجتمع العراقي في القرن الثالث عشر ميلادي ، وكل وما احتوته تلك الفترة من نزاعات وخلافات لم يستطع الحريري قولها في نصوصه فجاءت هذه التصاوير معبرة بشكل مذهل فهي

(1) ينظر الفن العربي الإسلامي ، المنضمة العربية للتربية و الثقافة، ص 175.
(2) المهرجان الدولي الثقافي للمنمنمات و الزخرفة، وزارة الثقافة، ص 108
(3) بلندر حيدر ،زمن لكل الأزمنة، ط1،المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، 1971، ص 27.

كانت كما قال الدكتور حسن زكي في هذه الشأن: « صورة صادقة لحياة الطبقات المختلفة من حكام ورعية والتي تضم في زخارفها وسحاتها رسوم كثيرة من الأدوات المستعملة في ذلك العصر حتى ليمكن أن نستخرج منها مادة غزيرة عن أنواع العمارات والآثاث وأدوات القتال ، والثياب والبنود ، فضلا عن عادات القوم في الوعظ والتقاضي ، والزواج... والندوات الأدبية.»[1] أما الدكتور عفيف البهنسي فيرى في هذه الصور التي رسمت بأسلوب رشيق بسيط أنها « كشفت عن مفهوم جمالي أصيل ، وعبرت عن ملامح الحياة والبيئة ، فكانت رسوم الواسطي دراسة لأصول فن التصوير البغدادي ، وأساس بعض الدراسات الاجتماعية والفولكلورية والتاريخية.»[2]

يرى فيها الدكتور علي سليمان « أنها مرآة ناصعة لواقع المجتمع العربي الإسلامي في العراق ، فهي وثائق تاريخية مهمة جدا تنقل لنا واقع الحياة وما بها من ملذات ومسرات وآلام وأحزان ومكائد ودسائس ووغيرها ، والتنويع فيها كبير وما فيها من آلات وأدوات وملابس وحيوانات وعناصر معمارية كثيرة.»[3]

أما بلندر حيدر فيرى أن الواسطي استطاع أن « يرسم لنا صورة دقيقة عن المجتمع البصري في العهد العباسي على مختلف طبقاته ، فيجمع بين ترف الأغنياء وشقاء الفقراء والكادحين ليخرج بك من خلال ذلك التناقض ، من تلميح الحريري كاتبا الذي تجنب الكتابة المباشرة ، عما ألفت تلك الفترة من نزاعات وصراعات سياسية واجتماعية إلى تصريح الرسام بالتعبير عن شتى مظاهر الحياة آنذاك.»[4]

(1) زكي محمد حسن، أطلس الفنون الزخرفية و التصاوير الإسلامية ، دار الرائد بيروت، 1981، ص 513

(2) عفيف بهنسي، المرجع نفسه، ص 53.

(3) الفن العربي الإسلامي، وزارة الثقافة، ص 185.

(4) بلندر حيدر، المرجع نفسه، ص 127.

وقد قال عنه «هنري كروبان»: «إن خير من نستطيع أن نحقق معه ونستجوب شهادته عن العصر هو الواسطي. « وقال عنه كونل: « إنه موهبة خلاقة ، ومقامانه محلاة بصور تعالج المشكلة التصويرية بدقة تفوق حتى صور الكتب الغربية.»[1]

نستنتج من هذه الأقوال أن منمنمات الواسطي لها أهمية كبرى في التاريخ والمجتمع والحضارة فقد كشفت لنا عن أشياء كثيرة لم نكن نعرفها من قبل ولم تنقلها لنا كتب التاريخ بصريح العبارة، هذا كله مع عدم مخالفتها للشرع الإسلامي فلا إيهام للنظر فيها، ولا تجسيم إذ كانت منمنماته ترسم وفق بعدين فقط هما الطول والعرض، واستطاع الواسطي بعبقريته أن يستبدل العمق بالتلاعب بالألوان ويمكن إجمال أهم خصائص منمنمات الواسطي في النقاط التالية:

*- تعتبر صورة صادقة ومرآة ناصعة وعاكسة لواقع المجتمع العربي في العراق في القرن الثالث عشر ميلادي.

*- صورت الطبقات المختلفة للأشخاص من حكام ورعية ، ومدى التناقض الذي كان سائدا في ذلك العصر.

*- بينت لنا الأدوات المستعملة من أواني وأثاث منزلية وكذلك أدوات القتال وأنواع العمارات ، والثياب ، والآلات

والحيوانات.

*- أوضحت عادات القوم وتقاليدهم في الأمور المختلفة من زواج وتشييع للجنازات ،الإحتفالات كما بينت عاداتهم في الوعظ والتقاضي، وأبرزت الندوات الأدبية التي كانت تقام في بغداد.

*- تعتبر رسومات الواسطي دراسة لأصول فن التصوير البغدادي لما تحتويه هذه المنمنمات من دقة في التعبير وخيال واسع ، ومميزات جديدة لم تكن تعرف من قبل.

(1) محمد حسين جودي، المرجع نفسه، ص 198.

*- ساهمت هذه الصور في تغذية الدراسات الاجتماعية لما تحتويه من ذكر للطبقات الاجتماعية المختلفة ، فالواسطي لم يترك شيئا في ذلك العصر إلا وتحدث عنه ، وكذا ساهم في إغناء الدراسات فولكلورية من خلال تحدثه عن عادات وتقاليد عصره ، وساهم أيضا في الدراسات التاريخية وما ساعد أكثر دقته في رسم عمارة المساجد والقصور.

*- عبر الواسطي في تصاويره عن لذة الحياة ومسراتها ، وكذا أحزاها ومكائدها ودسائسها. من خلال التناقض الذي كان في ذلك العصر

*- كما بينت هذه الصور تلك النزاعات والصراعات السياسية التي كانت في العصر العباسي ، والتي لم يستطيع الحريري كتابتها بل اقتصر على التلميح لها فقط ، متجنبا ذكرها بصريح العبارات ، لكن الواسطي عبر عنها بريشته دون خوف ، ودون تلميح فكانت هذه الصور حقا مرآة صادقة لذلك العصر وبطبقاته المختلفة ، وساهمت في التعرف على المجتمع البغدادي في فترة مهمة لم تنقلها لنا كتب الأدب ولا كتب التاريخ.

فالواسطي أخرج الفن من حيز الحياة وذهب به إلى أبعد ما ذهب به من سبقوه ، أعطاه لونا جديدا من خلال استلهامه لتلك المعطيات السابقة واستلهامه أيضا خصائص الفن الإسلامي ، فالواسطي» استطاع أن يخرج الفن إلى الحياة فيما يقوم بالولوج إلى عوالم لم تخطر ببال من سبقوه أو التقرب منها.»[1]

وتكمن الأهمية الفنية لمنمنمات الواسطي في استبدال البعد الثالث بعاملي اللون والإضاءة ، فلم يسبق لأحد أن فكر هذا التفكير وإن كان من سبقه فإنه لم ينجز ما أنجزه الواسطي في ذلك ، فقد أبعد العمق والبروز لأن هذا من خصائص التصوير الإسلامي وجعل محله اللون والنور اللذان هما من وسائل السطح التصويري والذان يقومان بالدور الذي يلعبه العمق ، وهذا من خلال دراسة «شاكر حسن سعيد.

(1) المهرجان الدولي و الثقافي للمنمنمات، ص 108.

.- لقد استعمل الواسطي الزخارف العربية بكل أنواعها ، حتى الكتابية فنرها في الملابس وفي الأدوات وفي العمارات وقد ذكر ذلك عفيف البهنسي بقوله: « فقد برع الواسطي في رسم الزخارف الهندسية مندمجة أو مشتركة مع الزخارف النباتية والحيوانية. والزخارف الكتابية فقد شملت الكتابة الكوفية المبسطة والمورقة والمزهرة المحفورة على أرضية من الزحارف النباتية.»[1] إلا أنه لم يسمح للزخرفة من أن تسيطر على عمله وجميع رسوماته كما كان سائدا في ذلك العصر قفد عرف بحنكته كيف يوظفها من دون أن تستغل لوحاته بالكامل يقول بلندر حيدر: « وأنه استعان بالزخرفة كطبيعة رديفة لفنون عصره إلا أنه لم يسمح لها أن تنال من عمله الفني كجهد تعبيري. »[2]

وأهم شيء هو تميز صوره بدقة في الواقعية والتعبيرية ، أما الأولى فتتمثل في رسمه للعمارات من قصور ومساجد فنلاحظ أن الواسطي أعطى للعمارة أهمية كبرى في رسوماته وصورها بجميع أجزائها الداخلية والخارجية وكذلك الحال عند رسمه للحيوانات ، وأما الثانية فقد كانت في رسومات الواسطي الجزء الأكبر فيها إذ أنه استعان بالأصابع وحركات الجسم والوجه خصوصا في تعبيرية الأشخاص فنرى الرسم معبرا عن نفسه.

وبذلك حق له أن يكون شيخ المصورين العرب بامتياز.

(1) عفيف البهنسي، جماليات الفن العربي، ص 55.

(2) بلندر حيدر، زمن لكل الأزمنة، ص127.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أبو الحسن مسلم، صحيح مسلم، ج 5، دار المعارف، لبنان، د ت.
2- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، البصائر الجديدة، د ت.
3- أحمد تيمور باشا، التصوير عند العرب ، تع زكي محمد حسن، ط 2، هلا للنشر، الجيزة، 2002
4 - أحمد شوقي الفنجري، الإسلام والفن، ط1 دار الأمين، مصر، 1998.
5- الإمام مالك، الموطأ، دار الكتب، الجزائر، د ت
6-بلندر حيدر ،زمن لكل الأزمنة، ط1،المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، 1971.
7- المهرجان الدولي الثقافي للمنمنمات والزخرفة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2010.-
8-الفن العربي الإسلامي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة، ج1، تونس، 1994.
9-كي محمد حسن، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ، دار الرائد بيروت، 1981.
10-محمد عزيز نظمي، قراءات في علم الجمال، ج1، مؤسسة شباب الجامعية، الإسكندرية، 1996،
11- محمد حسين جودي، الفن العربي الإسلامي، دار المسيرة، عمان ط1، 2007.
12- سمير غريب، في تأريخ الفنون الجميلة، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1998.
13- سعاد ماهر محمد، الفنون الإسلامية،مركز الشارقة للإبداع الفكري، دت.
14- عفيف بهنسي، جماليات الفن العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1978.
15- مجلة الكلمة، العدد 67، لبنان، 2012